الأستاذة: كعبش ريمة

المقياس: مقاربات نقدية معاصرة

السنة: الثانية ليسانس

التخصص: دراسات أدبية

بتاريخ:08 -04-2021

المحاضرة رقم 4: البنيوية التكوينية

تمهيد:

تعد البنيوية التكوينية أو التوليدية، فرعا من فروع البنيوية، نشأ استجابة لسعي بعض المفكرين و النقاد و الماركسيين، للتوفيق بين أطروحات البنيوية في صيغيتها الشكلانية و أسس الفكر الماركسي أو الجدلي في تركيزه على التفسير المادي و الواقعي للفكر والثقافة عموما.

1- مفهوم البنيوية التكوينية:

إن كلمة البنيوية التي تشتق منها البنائية هي نزعة مشتركة بين عدة علوم كعلم النفس، و علم السلالات لتحديد واقعة بشرية بالنسبة إلى مجموع منظم، فهي نظرية قائمة على تحديد وظائف العناصر الداخلية في تركيب اللغة، ومبينة أن هذه الوظائف المحددة لمجموعة من الموازنات و المقابلات هي مندرجة في منظومات واضحة، و ليس للأعضاء وجود مستقل إلا من خلال تحديد وظائفها العامة.

و يتضح أن مفهوم البنية(Structure) ، و مفهوم التكوين (Genese) هما الأساس الذي تقوم عليه البنيوية التكوينية.

التكوين أو التوليد لا يتضمن أي بعد زمني يعيد الشيء المدروس إلى تاريخ ولادته و نشأته. فالبعد الزمني في هذا الشأن ثانوي جدا، و لا يخفي غولدمان عدم ارتياحه لكلمة بنية لخشيته من الثبات و السكون اللذين يمكن إضفاؤهما عليها، فيقول في هذا الشأن " تحمل كلمة بنية، للأسف، انطباعا بالسكون. و لهذا فهي غير صحيحة تماماً. و يجب ألا تتكلم عن البنى؛ لأنها لا توجد في الحياة الاجتماعية الواقعية إلا نادرا و لفترة و جيزة، و إنما نتكلم عن عمليات تشكل البنى."

ومن هذا المنظور فإن البنية التي يأخذ بها غولدمان ترتبط بالأعمال و التصرفات الإنسانية، إذ يكون فهمها محاولة لإعطاء جواب بليغ على وضع إنساني معين؛ لأنها تقيم توازنا

بين الفاعل و فعله أو بين الأشخاص و الأشياء. فصفة التكوين أو التوليدية هنا تعني الدلالية، دون الرجوع إلى النشأة بالضرورة.

و قد أشار عبد السلام المسدي في كتابه قضية البنيوية بهدف هذا المصطلح من منظور غولدمان إلى إقامة توازن بين العالم الخارجي(الذي يحيط بالإنسان و يرسل إليه الحروب و الفتوحات و النزوحات والاختلال مثلاً)، و العالم الداخلي(الذي ينبعث من الإنسان و المجموعة البشرية بغية التفاعل أو الرفض)، و يرى غولدمان أن هذا التوازن يتبدل من مجتمع إلى آخر و من حقبة زمنية إلى أخرى.

2- مقولات البنيوية التكوينية:

- **البنيـة الدلاليـة:**

يفترض مفهوم البنية الدلالية، الذي أدخله غولدمان، لا فقط وحدة الأجزاء ضمن كلية و العلاقة الداخلية بين العناصر، بل يفترض في نفس الوقت الانتقال من رؤية سكونية إلى رؤية دينامية، أي وحدة النشأة مع الوظيفة بحيث نكون أمام عملية تشكل للبنيات متكاملة مع عملية تفككها.

إن مفهوم البنية الدلالية يشكل الأداة الرئيسية للبحث في أغلب الوقائع الماضية و الحاضرة، مع ذلك فهنالك عدد من قطاعات الواقع التي يبدو أنها تقتصر على مفهوم البنية، من حيث أننا لا نستطيع فصل الجوهري عن العرضي و لا دمجها في بنيات أوسع، فيما يتعلق بمقولة البنية يشير غولدمان إلى أنها، مع الأسف، ذات رنين سكوني، مما يجعلها غير دقيقة دقة صارمة، لذلك لأننا نصادف في الحياة الاجتماعية الواقعية بنيات قليلة بل بالأحرى نصادف عمليات لتشكل البنيات، عمليات يمكن وضعها في علاقة مع البنيات الذهنية الخاصة لا بأفراد بل بالمجموعات وبالطبقات. إن اتجاه تشكل البنية نحو بنية جديدة، الخاص بالمؤلفات الفلسفية الكبرى، و بالمؤلفات الأدبية و الفنية، يعبر عن نظام و عن انسجام الموقف العام للإنسان تجاه المشاكل الرئيسية التي تطرحها العلاقات القائمة بين الناس و العلاقات القائمة بين الناس و الطبيعة، في حين أن تفكك البنيات يعبر عن المسافة التي تفصلها عن البنيات القديمة و عن المواقف التي كانت المجموعة الاجتماعية تسعى نحوها في الماضي.

و يؤكد غولدمان أن البنيات الذهنية و الوجدانية و البنيات السلوكية هي دوما بنيات تاريخية، يؤثر بعضها على بعض تأثيراً متبادلاً، و تتدامج ضمن بنيات تحتويها و تشملها. و النتيجة أنه لا يوجد أي سبب يدفع إلى التوقف في التحليل عند كتابة ما أو عند نتاج أو عند فردية المؤلف

أو حتى عند الوعي الجماعي.

و يوصي غولدمان النقد الأدبي، بتبني منظور واسع، لا يغفل التحليل الداخلي للنتاج، و اندراجه ضمن البنيات التاريخية و الاجتماعية و لا يغفل كذلك دراسة السيرة الذاتية و نفسية الفنان، كأدوات مساعدة. كما يدعو إلى إدخال النتاج في علاقة مع البنيات الأساسية للواقع التاريخي و الاجتماعي.

- **رؤيــة العالــم:**

لا يأخذ غولدمان مقولة رؤية العالم في معناها التقليدي الذي يشبهها بتصور واعٍ للعالم، تصور إرادي مقصود، بل هي عنده الكيفية التي يحس فيها وينظر فيها إلى واقع معين، أو النسق الفكري الذي يسبق عملية تحقق النتاج: إن ما هو حاسم، ليس هو نوايا المؤلف بل الدلالة الموضوعية التي يكتسبها النتاج، بمعزل عن رغبة مبدعة وأحيانا ضد رغبته، و يرى غولدمان، في منظور مادي جدلي أن الأدب و الفلسفة من حيث أنهما تعبيران عن رؤية للعالم– في مستويين مختلفين– فإن هذه الرؤية ليست واقعة فردية بل واقعة اجتماعية تنتمي إلى مجموعة أو إلى طبقة. و تبعا لبرهنته، فإن أي رؤية للعالم هي من وجهة نظر متناسقة و وحدوية حول مجموع واقع و فكر الأفراد الذي يندر أن يكون متناسقا و وحدويا باستثناء بعض الحالات. لا يتعلق الأمر هنا بوحدة ميتافيزيقية و مجردة، بدون جسم و لا شكل، بل يتعلق الأمر بنسق فكري يفرض نفسه، في بعض الشروط على مجموعة من الناس توجد في شروط مشابهه، أي على بعض الطبقات الاجتماعية.

- **القيمــة:**

إن إحدى المعايير الأساسية لقيمة النتاج– حسب غولدمان– هي مقدار تمثيلها لرؤية متناسقة للعالم على مستوى المفهوم و على مستوى الصورة اللفظية أو الصورة الحسية. إن التفسير العلمي لنتاج ما لا ينفصل عن إبراز قيمته الفلسفية أو الجمالية، مما يفترض استخراج الرؤية المعبر عنها و التأويل الموضوعي لها. نحن نعرف مع ذلك أن الرؤية المتناسقة ليست هي المعيار الصالح الوحيد. و في العلوم تتدخل الحقيقة، أما في الفن فإن المعايير تناسب الواقعية. و تضيف البنيوية الفرنسية بأنه يمكن القول أن نظرية علمية ما تأخذ قيمتها حين يعترف بها كنظرية خاطئة، في حين أن عملا فنيا ما لا يمكن أن يكون غريبا كل الغربة عن كل واقعية– كما يحدث في العلم المعاصر– دون أن يفقد بذلك قيمته الجمالية. و إذا كان الفرق بين العلم والفن أمرا بديهيا، فإننا نعرف بأننا لا ننجح في فصل المعنى الأكسيولوجي المضفي على الواقعية.

يعلن غولدمان أنه يناصر الفكرة التي تبلورت في علم الجمال التقليدي، و التي تعرف القيمة كـ (توتر متجاوز ومتغلب عليه) بين الثراء الحسي و الوحدة التي تنظم هذا التعدد في مجموع متناسق. و يبدو هذا المنظور صادقا بقدر ما يكون التوتر هو في نفس الوقت توتراً أكبر و متغلباً عليه بصورة أكثر، أي بقدر ما يكون الثراء و التعدد الحسي للنتاج كبيرين، و بقدر ما يكون عالم النتاج عالما منظما صارما و يشكل وحدة بنيوية. فإن التناسق الذي يعتبر هو أيضا رغم عدم كفايته كمعيار أساسي بجانب رؤية العالم و بجانب السمة التوترية للنتاج.

إن القيم الحقيقية في مفهوم غولدمان، ليست هي القيم التي يعتبرها الناقد أو القارئ كذلك، بل هي القيم التي تنظم ضمنيا مجموع عالم النتاج. و من البديهي في هذا المنظور أن لكل نتاج في حد ذاته قيمه الخاصة. حين يتعلق الأمر بالفن، فإن وجود القيم ليس وجودا مفهوميا و مجردا، وجودا يأخذ في وعي المبدع صورة أخلاقية، و التي عبر عنها لوكاش قائلا بأن (أخلاقية الروائي تصبح مشكلة جمالية للنتاج). أي أن الأمر لا يتعلق هنا بقيمة النتاج بل بالقيم التي يستدمجها، لذلك من غير الكافي أن تكون القيم الأخلاقية المعنية قيما أساسية حتى يكون العمل الفني ناجحا من وجهة نظر علم الجمال.

إن القيم الفكرية الحقيقية لا تنفصل عن الواقع الاقتصادي و الاجتماعي بل بالعكس تتكئ عليه، و هي تدقيقات في غاية الأهمية، رغم أن إطار حل المشكلة يمر عبرها بصعوبة. و بالفعل فإن الميكانيزم الملموس لتقييم النتاج مفقود فيها. إن فكرة أهمية المضمون (المأخوذة من لوكاش)، و الواقع أننا أمام كائنات ملموسة و واقعية أنه يتعين علينا في تقديراتنا أن نأخذ ثراء و وحدة العالم المبدع بعين الاعتبار، و لكنها تبقينا في نفس المنظور العام. و إن التحليلات الملموسة التي يقوم بها المؤلف تنطلق في معظمها من الأعمال الفنية و من مؤلفين معروفين، و مع أننا نتفق مع المواقف المبدئية لغولدمان– إلا أننا نأسف لواقعة أعماله تشعر المرء بضرب من (المضمونية) و أن المشاكل (اللغة) لا تعالج إلا في مدى ضعيف.

– النتـــاج:

النتاج حالة خاصة و متميزة للسلوك الإنساني في المعنى الذي يتعين فيه على السلوك الإنساني أن يعبر عن بنية دالة تنتمي لا إلى الفرد بل إلى المجموعة أو إلى الطبقة التي يمثلها هذا السلوك. إن التفاعل المتبادل بين الذات و الموضوع مصوغة بصورة في منتهى الدقة، مبرهنة على أنهما بعيدان عن أن يكونا متموضعين في قطبين متعارضين تعارضا كليا أو أنهما لا يتداخلان فيما بينهما. إن الموضوع العالم الطبيعي و الاجتماعي هو جزء كبير منه منتوج للأنشطة الإنسانية أي للذات إذن، في حين أن البنيات التي تحكم نشاط الذات وفي المقام الأول المقولات الفكرية و القيم– هي منتوج التطور التاريخي للعالم الطبيعي والاجتماعي.

- **الفن:**

إن تصورات غولدمان المتعلقة بطبيعة الفن ليست تحليلات داخلية للفن(باستثناء بعض الحالات) بقدر ماهي مقدمات لإنشاء منهجية ضرورية للبحث، و ليس من الصحيح أن الفن يقوم في شكل مستقل عن المضمون أو يمكن أن يأخذ صفاءه بواسطة اقتراب أكبر من الحياة الواقعية و من الصراعات الطبقية، لذلك لا يمكن تقدير قيمة نتاج ما من خلال مضمونه، باسم بعض المذاهب أو بعض المعايير. فالفنان لا ينسخ الواقع، بل يبدع كائنات و أشياء تشكل عالما موسعا وموحدا إلى هذا القدر أو ذاك، عالما ذا تناسق و منطق داخلي منظورا إليه من زاوية معينة.

و عليه يقول غولدمان أنه:

1- لا يتعين علينا، في فهم النتاج، إيلاء اهتمام خاص للنوايا الشعورية لمؤلفه.

2- لا يتعين تقدير أهمية الفرد تقديرا زائدا، خلال التفسير؛ لأن التفسير هو قبل كل شيء، البحث عن ذات فردية أو جماعية بحيث يكون للبنية الذهنية التي تسود النتاج الفني دور وظيفي و دلالي بالنسبة لهذه الذات.

3- ليس لـ (التأثيرات) أية قيمة تفسيرية بل أنها هي ذاتها تشكل عناصر يلزم تفسيرها.

4- إن قيمة طريقة التفسير ليست واحدة في منظور علم الاجتماع البنيوي و في منظور التحليل النفسي، و لكنها ليست مع ذلك متعارضة بل هي بالأولى متكاملة.

5- إن نظام القواعد الخاصة بالنتاج ليست أبدا محايثة و لا موجودة قبل البنية الاجتماعية، بل العكس إن هذا النظام هو نتيجة عمليات تحويل اجتماعية شمولية.

3- خطوات المنهج البنيوي التكويني في النقد الأدبي:

الخطـوة الأولـى: البدء بقراءة ألسنية للنص، و ذلك عن طريق تفكيك بنياته إلى وحداتها الصغرى الدّالة، و ذلك باكتشاف(البنية السطحية) للنص، و بيان بنيات الزمان و المكان فيه. ثم تركيب هذه الاجزاء للخروج منها بتصور (البنية العميقة) للنص، أو رؤية العالم كما تجسدت في الممارسة الألسنية للنص.

الخطـوة الثانيـة: إدماج هذه البنيات الجزئية للوحدات الدالة في بنية أكثر اتساعا. وتفكيك هذه البنية الأشمل، أيضا، للعثور على دلالتها الشاملة. و بهذا ننتقل من (النص الماثل) إلى (النص الغائب)، و ذلك أن النص الماثل ليس ذرة مغلقة على نفسها، بل هو نتاج اجتماعي تاريخي، يعبر عن طموحات فئة اجتماعية أو طبقة اجتماعية. و بذلك تصبح قراءة النص

الأدبي كشفا لبنياته المتعددة، ثم إدماجها في البنية الاجتماعية لبيئة المبدع وعصره.

و هكذا تبحث البنيوية التكوينية في أربع بنيات للنص هي:

1- البنية الداخلية للنص.

2- البنية الثقافية أو الايدولوجية

3- البنية الاجتماعية.

4- البنية التاريخية. و هذه البنيات متكاملة و متفاعلة فيما بينها. فإذا كانت القراءة الداخلية للنص تقدم لنا خطوة نحو فهم القوانين المتحكمة في البنية الداخلية، فإن هذا الفهم بحاجة إلى تفسير. و هذا ما ينبغي التماسه في البنية الثقافية. غير أن هذا التفسير يظل مجردا، إذا لم يتحول إلى فهم، فيصبح بدوره بحاجة إلى تفسير، مما يستدعي مقاربة البنية الثالثة(الاجتماعية).

المراجع:

- **ينظر**: سليم ساعد السلمي، البنيوية التكوينية(مقال إلكتروني)

- ينظر: غولدمان، لوسيان و آخرون، البنيوية التكوينية و النقد الأدبي، مؤسسة الأبحاث العربية، ط2، بيروت، لبنان، 1986م.

- ينظر:عزام، محمد، فضاء النص الروائي –مقارنة بنيوية تكوينية في أدب نبيل سليمان–، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط1، اللاذقية، سوريا، 1996م.

- ينظر: الرويلي، ميجان، البازعي سعد، دليل الناقد الأدبي، –إضاءة لأكثر من خمسين تيار ومصطلحاً نقدياً معاصراً– المركز الثقافي العربي، ط2، 2000م

- بنيس، محمد، ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب، مقارنة بنيوية تكوينية، دار التنور للنشر، ط2، 1985م.